بسم الله الرحمن الرحيم

# الجزء الثالث والعشرون

## سورة ياسين

من الآية ٢٨ حتى نهايتها الآية ٨٣

## وسورتا
## الصافات - ص

## وسورة الزمر

من بدايتها حتى الآية ٣١

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) ﴾

وما أنزلنا على هؤلاء القوم الكافرين جنداً من السماء لإهلاكهم، فالأمر أهون من ذلك، إنما كانت صيحة واحدة أخمدتهم جميعًا. وقد تعددت التأويلات عن تلك القرية، وكلها مأخوذة من حكايات أهل الكتاب ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾ الذين كلما أتاهم رسول كذبوه. ألم يعرفوا أننا أهلكنا القرون السابقة لهم، و﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ فلماذا تتبعون تلك القرون التى ضلت وانتهى أمرها فى الدنيا؟ وقال الماتريدى إن ذلك جاء ردّا على من قالوا بتناسخ الأرواح، والله أعلم ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ فى يوم الحساب.

* * *

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾

تنبه آيات القرآن الناس لآيات الله فى الكون: الأرض الميتة يحييها الله فتخرج للناس حبّا مثل القمح والأرز وغيره يأكلونه، وتتحول إلى جنات من النخيل والأعناب وغيرهما من الفواكه للأكل تسر الناظرين، ويفجر الله من تلك الأرض الميتة عيون ماء تبعث الحياة فى البشر والدواب والنبات، فيأكلون ثماره ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ تحتمل معنى أنهم يأكلون من عمل أيديهم فى الزرع والسقيا وما يصنعونه من طعام وشراب، وتحتمل أن تكون ﴿ مَا ﴾ النافية، فيصبح المعنى أنهم يأكلون مما لم تعمل أيديهم فيه، وإنما نمت الثمار بماء المطر، وتحتمل المعنيين معًا، فالبعض مما يأكلونه لم تعمل فيه أيديهم، والبعض الآخر عملت فيه ﴿ أَفَلا

يَشْكُرُونَ﴾ على هذا وذاك ﴿سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ تنزه عن الشركاء الله الذى خلق من كلّ شىء زوجين للتكاثر، من النبات ومن الناس والدواب والطيور والأسماك ومما لا نعلم.

* * *

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)﴾

وآية لهم دورة الحياة، ننزع النهار من الليل فيصير مظلمًا، والشمس تجرى لمستقر لها، الله أعلم بمقصوده به ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ والقمر ينزل كلّ ليلة منزلاً مقدرًا، حتى عاد فى دورته الشهرية ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ كعود النخلة الذى عليه الشماريخ عندما يأتى عليه الحول ويتقوس، وهو رفيع ﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ تلحقه فتجذبه أو تصطدم به ﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ فهما يتعاقبان ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ وكلٌّ من الشمس والقمر والكواكب فى فلك يدورون.

* * *

﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤)﴾

وكما سخر الله الأرض للإنسان سخر له البحر، فجعل لمائه خواصّا تحمل المراكب الخشبية القديمة، والتى تحركها المجاديف البدائية، ثم الأشرعة التى تدفعها الرياح المسخرة، وبعد ذلك السفن الحديثة التى تجوب البحار بقوانين احتراق الوقود وقوانين الحركة، وكلّ ذلك مسخر ليتمكن الإنسان من الانتقال فى البحر، ونقل بضائعه، ويصطاد منه طعامه ويستخرج حليه، ولو شاء الله لجعل البحر عصيّا على الإنسان إذا دخله غرق، لا مغيث له ولا منقذ ﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ متاعًا فى الدنيا إلى وقت محدود هو انتهاء آجالهم أو أجل الدنيا.

* * *

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٤٧) ﴾

وإذا قال الرسل لأقوامهم اتقوا يوم الحساب، واتقوا أن يهلككم الله كما أهلك القوم الظالمين بعذاب الاستئصال، لعل الله يرحمكم بتقواكم. ثم تترك الآية جواب الشرط للمستمع أو القارئ، وقيل جوابها تتضمنه ﴿ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ من كتب الله، أو آيات رسله، أو آيات الكون وأحداثه، إلا أعرضوا استكبارًا ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ على الفقراء والمحتاجين رفضوا بحجة أن الله لو أراد أن يرزقهم لفعل[1] ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ جاء فى الحديث « إن الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم بقدر الذى يسع فقراءهم، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا وعروا إلاّ بما يصنع أغنياؤهم، ألا وإن الله يحاسبهم حسابًا شديدًا ويعذبهم عذابًا أليمًا» رواه الطبرانى عن على (رضي الله عنه).

❋ ❋ ❋

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) ﴾

دائمًا يقول الكافرون استكبارًا وتحديًا واستهزاءً ﴿ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فيجيبهم رب العالمين ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ هى صيحة الساعة، بذلك قال أكثر المفسرين، ويحتمل السياق أن تكون صيحة موت أولئك الكافرين، فيأخذهم الموت وهم يتخاصمون ويتسابقون ويتنافسون على متع الدنيا، والله أعلم ﴿ فَلا

(١) يردد ذلك القول الآن بعض المتطرفين من اليمين فى الفكر المحافظ، فبعضهم يقول إن مساعدة الفقراء تفسدهم وتفسد المجتمع لأنهم هم المسئولون عن فقرهم، ويقول البعض الآخر إن فقرهم ما هو إلا عقاب إلهى لأنهم سيئون، وإن اليسر وسعة الحال علامة على رضا الله.

﴿يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ فكثير من الناس يودون قبيل موتهم أن يوصوا بشيء ما، ويريدوا أن يعودوا لمنازلهم ليموتوا فيها، أما يوم الساعة فزلزلته أشد من أن يريد بعضهم التوصية أو الرجوع لأهله، والله أعلم ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ نفخة البعث ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ إذا بالموتى فى القبور يسرعون فى الخروج منها ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾ يا هلاكنا ﴿مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ من الذى أحيانا وقد كنا أمواتًا رقودًا؟ فيعرفون الجواب الحق ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ الذين كنتم تكذبونهم ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ لليوم الحق، للحساب الحق، بالموازين الحق ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ لا ظلم اليوم ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

***

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ(٦٢)﴾

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ﴾ بعد الانتهاء من حسابهم ودخولهم الجنة بسلام ﴿فِي شُغُلٍ﴾ فى نعيم يشغلهم عما سواه ﴿فَاكِهُونَ﴾ طيبون فرحون، والفَكاهة بفتح الفاءتعنى طيب العيش والفرح والضحك، يتنعمون مع أزواجهم فى ظلال الجنة الوفيرة، ويتمتعون بطيب الطعام من فاكهة وغيرها، ولهم فيها كلّ ما يطلبون، ويكفيهم ويزيد قول ربهم الرحيم ﴿سَلَامٌ﴾ عليكم، وبالتباين عن أصحاب الجنة ﴿امْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ انفصلوا عن المؤمنين ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ تبين هاتان الآيتان، وآية الأعراف ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢)﴾ أن الله خلق فى فطرة الناس الإيمان به، وأخذ عهدهم ألا يعبدوا سواه ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ ولقد أغوى منكم خلقًا كثيرًا ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾.

***

﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ

أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨) ﴾

ويقال لأصحاب النار هذه هى جهنم التى كان يتوعدكم بها الرسل فى الدنيا إن تكبرتم وجحدتم ﴿ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ ﴾ احترقوا بها وفيها اليوم بكفركم ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ تمنعهم من الكلام بأفواههم وألسنتهم الكاذبة ﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ وينطق الله أيديهم وأرجلهم فتشهد عليهم، ولو شاء الله لطمس على أعينهم فى الدنيا، فأصبحوا عميانًا لا يعرفون طريقهم فى الدنيا كما أعموا بصائرهم عن الإيمان وعمل الصالحات، ولو شاء الله لمسخهم فى الدنيا بسبب ما مكنهم فيه، ثم كفروا وجحدوا نعمه بدلاً من أن يحمدوه ويشكروه، فأصبحوا لا يستطيعون ذهابًا ولا إيابًا ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ من نطيل عمره نرده من القوة إلى الضعف عقليّا وبدنيّا، فلا يستمتع بحياته، فاعلموا أن الحياة قصيرة ومتعها قليلة، وارجوا الحياة الأخرى؛ حيث الخلود فى النعيم، أو فى العذاب ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾.

* * *

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠) أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥) فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) ﴾

لقد اتهم الكفار محمدًا (ﷺ) بأنه شاعر[1] وأن القرآن من شعره، فأجابهم الله ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ فأكثر الشعراء يقولون ما لا يفعلون، وفى كلّ وادى يهيمون ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾ إن ما يتلوه عليكم وحى الله إليه من ذكر وقرآن مبين ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ وليس من أمات فطرته ومداركه ﴿ وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ويجعل الكافرين مستحقين العذاب. هل عميت أعين المنكرين لله عَمَّا يسره الله لجميع البشر؟ ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ الإبل والبقر والضأن والمعز ليتملكوها

(١) وذلك من جملة ما اتهموه به! فتارة قالوا شاعر، وتارة قالوا ساحر، وأخرى مجنون، ورابعة أنه يريد الرئاسة والملك، وتعاموا أنه لا يمكن أن يجتمع كلّ ذلك فى أىّ بشر، ناهيك عن أنهم كانوا قد لقبوه بالصادق الأمين! وحقًا إنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور.

﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ﴾ يستنفعون بها فى الزراعة وحمل البضائع والسفر، ويأكلون لحومها ويشربون ألبانها، ويتخذون من جلودها مساكن وملابس، وما إلى ذلك ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ نعمة ربهم ويحسنون عبادته، بل جحدوا ذلك ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً ﴾ من ملائكة، لأصنام، لبشر، لعقائد وأفكار ﴿ لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ طمعًا فى الفوز بالدنيا، ولكن تلك الآلهة لا تستطيع نصرهم ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ والمشركون حاضرون وجاهزون فى الدنيا للجدال والدفاع والقتال فى سبيل تلك الآلهة التى لا تستطيع نصرهم لا فى دنيا ولا فى آخرة ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ يامحمد ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾.

***

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) ﴾

فى إيجاز بليغ معجز، تبسط الآية جحود الكافرين! يا أيها الكافر: إن أصلك نطفة من ماء مهين، تعهدك ربك بالرعاية وأنت فى رحم أمك، وأنشأك خلقًا آخر فتبارك الله، حين سواك وعدلك وجعلك فى أحسن تقويم، فتبارك الله حين ذلك، وتبارك كلّ حين، ثم أنت أيها النطفة، والتى ستصير بعد عمر قصير جثة هامدة وجيفة بالية، تخاصم خالقك رب العالمين؟! ولست تخاصمه خصامًا هينًا بسيطًا، بل شديد الخصومة؟! فسبحان الله رب العالمين. ويا أيها النطفة، أنت تضرب لله الأمثال؟ وتسأله فى تحدّ وجهالة: من يحيى العظام التى أصبحت رميمًا؟ فتحضر الإجابة المنطقية القاطعة ﴿ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ ـ الذى ﴿ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤] ـ ومن آياته أن جعل لكم من الشجر الأخضر وقودًا لكم.

***

﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) ﴾

يا أولى العقول من الناس، ألا يستطيع من خلق السماوات والأرض أن يخلق مثلهم؟ ﴿ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ فسبحان الذى أمره ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ وسبحان الذى بيده كلّ ما كان، وكلّ ما هو كائن، وكلّ ما سيكون، وكلّ ما لم ولا ولن يكون ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥) ﴾

قسم الله بمخلوقاته هو تعظيم وتشريف لها، وتعددت التأويلات في المقصود بها، فقيل الصافات هى الملائكة، وسيأتى فى ختام السورة قول الملائكة ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴾، وقيل هى الطير فى السماء، وقيل الزاجرات هى كل ما يزجر الإنسان عن الشر، وقيل التاليات ذكراً هى الملائكة، وقيل كل النفوس التى تتلو ذكر الله، والله أعلم ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ أحد ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ فهو خالقكم وربكم، لم يخلقكم ليترككم كلاّ فى شأنه ﴿ وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ تختلف مطالع الشمس زماناً ومكاناً حسب فصول السنة الأربعة، بتقدير ربها رب العالمين.

* * *

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) ﴾

ولقد زينا السماء القريبة من الأرض بالكواكب ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴾ وحفظناها من كل شيطان متمرد ﴿ لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى ﴾ لا يتمكن أولئك الشياطين من تسمع الملأ الأعلى، وهم الملائكة فى قول المفسرين ﴿ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ

﴿عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ تتوالى على الشياطين القذائف من كل جانب، إبعادًا لهم، ولهم عذاب دائم ﴿إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ من أمور الملأ الأعلى، التى هى غيب بالنسبة لنا، فأتبعه ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ كأنه يثقب السماء بحركته، أو الليل بضوئه.

* * *

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩)﴾

فاسأل المكذبين يا محمد ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾ السموات والأرض وما فيهما؟ فهم قد خلقوا من طين ملتصق بعضه ببعض ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ يا محمد من جحودهم وإنكارهم للحق ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ ويستهزءون من أقوالك ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ﴾ وإذا ذكرتهم بخالقهم وربهم لا يتعظون ولا يلتفتون ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يبالغون فى السخرية ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ما جئتنا به ما هو إلا سحر مبين، أيمكن بعثنا نحن وآباؤنا بعد أن نموت ونصير ترابًا وعظامًا؟ قل لهم يا محمد ﴿نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ نعم تبعثون وأنتم أذلاء صاغرون، إنما هى ﴿زَجْرَةٌ﴾ صيحة واحدة، فإذا أنتم قيام من الموت تنظرون ماذا يُفعل بكم.

* * *

﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦)﴾

ويولول المكذبون ﴿يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ نعم ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ بين العباد ﴿الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ احشروا فى النار الظالمين المكذبين ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ وأشباههم وقرناءهم، سواء كانوا من الأزواج أو الأصدقاء أو غيرهم ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ وما كانوا يتبعون من قادتهم الظالمين ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ وجهوهم إلى طريق جهنم ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ احبسوهم فى موقف الحساب حتى يُسألوا ﴿مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ﴾ ما لنا لا نراكم تتناصرون ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾.

* * *

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) ﴾

تقص الآيات أحد مشاهد وأحوال المكذبين يوم الحساب، حين يتهم التابعون بإفساد من تبعوهم بأنهم سبب ما هم فيه، فقد كانوا يأتونهم ﴿ عَنِ الْيَمِينِ ﴾ اليمين تعنى القوة والقدرة، وتعنى الدين، وتعنى اليمن والتفاؤل، وكل المعانى واردة فى أساليب التضليل والإفساد، فيجيبهم قادتهم ورؤساؤهم فى الضلال: لم تكن لنا حجة بينة عليكم حتى تتبعونا، ولكنكم كنتم قومًا طاغين عن الحق غير مؤمنين، فأغويناكم فاتبعتمونا، فكلنا الآن ذائقون جزاء ما فعلناه ومشتركون فى العذاب ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ الذين كانوا يستكبرون عندما يسمعون رسولهم يقول لهم ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ويتحججون قائلين: أنترك آلهتنا لنتبع شاعرًا مجنونًا؟ وهم يعلمون فى قرارة أنفسهم أنه ليس بشاعر ولا مجنون، بل هو من أطلقوا عليه الصادق الأمين، وقد ﴿ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾.

***

﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (٤٩) ﴾

وينادى مناد فى المكذبين ﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴾ وهذا جزاء ﴿ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فى الدنيا حين كفرتم بالله ورسله واليوم الآخر، أما ﴿ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فلكلّ منهم رزق حدده الله، منه أطيب الطعام وألذ الشراب الذى لا يضر العقول ولا يستنزفها، ولهم إقامة طيبة على سرر متقابلة فى جنات النعيم، ولهم أزواج محبات لهم لا ينظرن لغيرهم، جميلات العيون ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ قال المراغى: [إنهن فى بياض يشوبه قليل من الصفرة كالبيض المستور فى الأعشاش، وهذا اللون (والستر) تهيم به العرب، فقد شبهت النساء ببيضات الخدور].

***

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) ﴾

وتتحدث الآيات عن أحد المشاهد المباينة لمشهد أهل النار، ففي الجنة يتساءل بعض أصحابها عن أهل النار، فيقول أحدهم: قد كان لي في الدنيا ﴿ قَرِينٌ ﴾ صاحب، يستنكر البعث بعد الموت للحساب، أتعرفون مصيره؟ فاطَّلع عليه فرآه في وسط الجحيم، فقال والله إنك كدت تهلكني، ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين إلى الجحيم معك. انظر عاقبة إنكارك البعث بعد الموت للحساب ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾.

* * *

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤) ﴾

هل الجنة وما فيها من نعيم مقيم أفضل أم شجرة الزقوم في النار؟ وقد جاء ذكرها في سورة الإسراء ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا(٦٠) ﴾ ـ وستجيء في سورة الدخان ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) ﴾ وفي سورة الواقعة ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) ﴾ ـ وفتنتها أن قال الكافرون كيف تنبت شجرة في النار؟ واستهزءوا بأكلهم منها ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ ثمرها كأنه رؤوس الشياطين في الشر والقبح ﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ وبئس الطعام المطعوم ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا ﴾ لخليطًا ﴿ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ من ماء بالغ الحرارة ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ ثم بعد أكلهم وشربهم يرجعون إلى الجحيم ـ كما جاء في سورة الرحمن ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ [٤٤] ـ ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴾ لقد وجدوا آباءهم في الدنيا ضالين، وقد

منحهم الله الفطرة والمدارك ليعبدوه وحده، ولكنهم ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾ على نهج الآباء ﴿يُهْرَعُونَ﴾ يهرولون ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ولكم أرسل الله الرسل إليهم لينذروهم ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ الذين أصروا على الكفر فأهلكناهم بذنوبهم ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾.

* * *

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢)﴾

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ﴾ مستنجداً من ضلال قومه بعد أن لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ فاستجبنا لدعائه، فأغرقناهم في الطوفان ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ نجيناه ومن آمن معه في السفينة من عذاب الاستئصال ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ روت كثير من التفاسير أخباراً عن ذرية نوح ليس لها أصل من كتاب ولا سنة، وقال المراغي في ذلك: [ما تفيده الآية من جعل ذريته هم الباقين إنما هو بالنسبة لذرية من معه في السفينة، وذلك لا يستلزم عدم بقاء ذرية من لم يكن معه (في باقي أرجاء الدنيا) وقد كان في بعض الأقطار الشاسعة من لم تبلغهم الدعوة فلم يستوجبوا الغرق، كأهل الصين وغيرهم من البلاد النائية] ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ تركنا ذكراً جميلاً وثناء عطراً لنبي الله نوح (عليه السلام) ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ وهل يطمع الإنسان في أكثر من تحية الله له بالسلام ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ وبعد سلام الله على نوح (عليه السلام) عده من المحسنين، فياللشرف والثواب العظيم، وكما أنجى الله نوحاً ورفع ذكره، كذلك يجزي جميع المحسنين من عباده ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أما المتكبرون الجاحدون الذين كذبوا نوحاً (عليه السلام) فقد أغرقهم الله.

* * *

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨)﴾

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾ سار إبراهيم (ﷺ) على نهج نوح ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ وعندما رأى قومه يعبدون الأصنام قال مستنكراً ماذا تعبدون ﴿ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ أكذبًا باطلاً دون الله تعبدون ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فكيف تنصرفون عن عبادة رب العالمين ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ كان قومه يعبدون الأصنام والكواكب، وكانوا يتنبأون من الأخيرة، أى يُنَجّمون، فنظر إلى النجوم وتنبأ ـ على طريقتهم ـ أنه مريض، لذلك ابتعدوا عنه لئلا يُصابوا بالعدوى ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ فمال إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون؟ وكان أمام الأصنام أنواع من النذور والذبائح فلم تنطق الأصنام، فقال ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾ فمال عليهم وأخذ يحطمهم بيمينه إلاّ الصنم الكبير، تركه، ووضع فى عنقه الفأس لينسب إليه التحطيم ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾ مسرعين عندما علموا بما أصاب آلهتهم، فقال إبراهيم (ﷺ) لهم ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ هل هذا يعقل؟ ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ وتتركون عبادة الله الواحد الأحد الذى خلقكم وخلق ما تعملون. وما تعملون تفيد العمل، أى خلقكم وخلق ما تعملون من أعمال، وتفيد ما تعملون من أصنام وأوثان، فصرخوا قائلين ﴿ ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا ﴾ وأججوا فيه النار، ثم ألقوه ﴿ فِي الْجَحِيمِ ﴾ ـ ولكن خالق النار قال: ﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩] ـ فنجا إبراهيم (ﷺ) وهلك القوم المجرمون ﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾.

* * *

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣) ﴾

﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ هجر إبراهيم (ﷺ) أباه وقومه فى سبيل الله ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ارزقنى بقدرتك بولد صالح ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ وهو بكره إسماعيل (ﷺ) ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ فلما صار غلامًا حليمًا وشارك والده فى السعى ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ قال إبراهيم (ﷺ) لابنه: يا بنى، لقد رأيت فى المنام أمرًا

إلهيّا بذبحك ﴿ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ فما رأيك؟ بأيّ ألم وحزن، وبأيّ وجه ومعنى كان ذلك السؤال؟ الله أعلم، فأجابه صادق الوعد ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ وشرع إبراهيم (ﷺ) في التنفيذ ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ فلما أسلما وجهيهما لله، وأرقده على جبينه ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ ناداه ربه لقد صدَّقت ما أوحينا إليك في المنام، فسننجيك وابنك من هذا البلاء المبين ونفديه ﴿ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ كبش، عظيم تعني ضخمًا، وقيل لأنه أدى أمرًا عظيمًا، وتركنا عليه ثناء وصلاة في الآخرين، سلام الله على إبراهيم ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ فهو من عبادنا المؤمنين، وبشره الله بميلاد ابن ثان، وهو إسحاق (ﷺ) يصبح هو الآخر نبيّا من الصالحين، وبارك الله على إبراهيم وعلى إسحاق ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ فالأنساب لا تعني ضمان الإمامة ولا ضمان الصلاح، وكان الرسول(ﷺ) يقول لبني هاشم محذرًا: «لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم».

***

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) ﴾

ولقد أنعمنا على موسى وأخيه هارون ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ من فرعون وجنوده الذين كانوا يستعبدونهم، يستحيون نساءهم ويذبحون ذكورهم ﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ وأغرقنا فرعون وجنوده الملاعين ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴾ التوراة كتابًا بينًا ظاهرًا ﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ للفوز بالدنيا والآخرة ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴾ تركنا عليهما ثناء في الآخرين ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ سلام الله على موسى وهارون ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

***

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) ﴾

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ إلى بنى إسرائيل، فقال لهم ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أتعبدون البعل، وهو أحد آلهة الشرق الأوسط القديمة، وتتركون ربكم أحسن الخالقين، ربكم ورب آبائكم الأولين ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ فكذبوه، فهم محضرون للعذاب ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ فهم مبعدون عن العذاب ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ وتركنا عليه الثناء فى الآخرين ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴾ سلام الله على إلياس ومن تبعه ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

* * *

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾

أرسله الله إلى قومه الذين يرتكبون الفاحشة ﴿ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾ فبعد أن جاء قومه طمعًا فى الملائكة، أمرته الملائكة بالخروج وأهله للنجاة من القرية فى الفجر، إلا زوجته العجوز التى وافقت القوم على خبثهم ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴾ ثم أهلك الله كلّ من فى القرية ﴿ وَإِنَّكُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ ﴾ فى سفركم للشام وعودتكم منه ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

* * *

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨) ﴾

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أرسل الله يونس (ﷺ) إلى أهل نينوى فى العراق ولكنهم أعرضوا، فغضب من ذلك ﴿ إِذْ أَبَقَ ﴾ أبق تعنى هرب العبد من سيده، والمقصود أنه فرّ وهرب ضيقًا ويأسًا، وقيل خوفًا على نفسه، والله أعلم ﴿ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ المركب المزدحم بالركاب ﴿ فَسَاهَمَ ﴾ فاقترع مع أهل السفينة على من يجب إلقاؤه فى البحر ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ المغلوبين، فرموه فى البحر ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ فابتلعه حوت وهو ملوم على تخليه عن مسئولية الرسالة ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ فلولا أنه كان دائم التسبيح ـ وكما جاء ﴿ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧] ـ فلولا هذا الذكر ﴿ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ لمات فى بطن الحوت،

وبقي فيه إلى يوم البعث، ولكن أنقذه ربه بهذا التسبيح من بطن الحوت ﴿ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ فلفظه الحوت من بطنه إلى الفضاء الواسع من الأرض وهو مريض لما أصابه في بطن الحوت ﴿ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ وأنبتنا بالقرب منه شجرة القرع ذات الأوراق الكبيرة. ويقول علماء اليوم إن القرع يُعالج الالتهابات الجلدية. وعندما استجمع قواه، أرسله الله مرة أخرى إلى ﴿ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ إلى أكثر من مائة ألف، وقال الفرّاء والماتريدي والشوكاني والمراغي وغيرهم: أو تعني هنا بل ﴿ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ فآمنوا بالله حتى جاء أجلهم.

***

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) ﴾

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ يا محمد ﴿ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾ فلقد كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله وخصوا أنفسهم بالبنين، والله خالق الذكر والأنثى، أم عاينوا خلق الملائكة ورأوا أنهم إناث، ألا إنهم من كذبهم وافترائهم الشديد يقولون ﴿ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فهو لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾ هل اختار الله لنفسه البنات وفضلهم على البنين ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ ما الذي أصاب عقولكم؟ ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أن الله خالقكم أجمعين ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴾ لكم حجة قوية ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾.

***

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠) فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) ﴾

سبق في الآية الثالثة عشرة من سورة السجدة تفسير ﴿ الْجِنَّةُ ﴾ بأنها الجن، ولكن لم يأخذ أكثر مفسرينا بهذا المعنى هنا، وقالوا إن الاجتنان هو الاستتار، والمقصود بالجنة هنا الملائكة وليس الجن، وقد قال بذلك كلّ من الطبري والماتريدي والزمخشري والبيضاوي والشوكاني والمراغي ومخلوف وغيرهم، ويكون المعنى: وجعل المشركون بين الله والملائكة قرابة ونسبًا،

ولقد علمت الملائكة أن المشركين مُحضرون للعذاب يوم الحساب، وأضاف البيضاوى فى تفسيره [وقيل قالوا إن الله ـ تعالى ـ صاهر الجن فخرجت الملائكة، وقيل قالوا الله والشياطين إخوان ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ ﴾ إن الكفرة أو الإنس والجن إن فُسرت بغير الملائكة ﴿ لَمُحْضَرُونَ ﴾ فى العذاب]، ونقل القرطبى عن قتادة والكلبى ومقاتل قولهم [قالت اليهود إن الله صاهر الجن فكانت الملائكة من بينهم، وقال مجاهد والسدى ومقاتل أيضًا: القائل ذلك كنانة وخزاعة]، ونقل الألوسى ما يشبه ذلك عن كفار قريش، أما الرازى فقال [ إن قومًا من الزنادقة يقولون الله وإبليس أخوان، فالله الخير الكريم، وإبليس هو الأخ الشرير الخسيس، وعندى أن هذا القول أقرب الأقاويل (للمقصود: أى لمذاهب أهل الضلال المقصودة من الآية)، وهو مذهب المجوس]، وإذا أخذنا بأن المقصود بـ ﴿ الْجِنَّةُ ﴾ الجن، يكون المعنى: وجعلوا بين الله وبين الجن نسبًا، وقد علمت الجن أنهم محضرون للحساب، والله أعلم. ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ تنزيهًا لله عما ينسبونه له من صفات البشر ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ فلا يصفون الله كما يصفه أولئك المشركون ﴿ فَإِنَّكُمْ ﴾ أيها المشركون ﴿ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ من الشياطين باتباعها ﴿ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴾ ما انتم بمضلين أحدًا ﴿ إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴾ إلا الذين سبق فى علم الله أنهم ضالون، فإنهم سيصلون الجحيم ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ قالت الملائكة ـ مؤكدة لمقامها الكريم بين عباد الله: ما أحد من الملائكة إلا له مقام فى العبادة والقرب من الله ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴾ فى عبادة الله ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ المنزهون لله عما لا يليق بجلاله وكماله.

***

﴿ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾

وكان كفار قريش قبل رسالة محمد (ﷺ) يقولون لو أرسل الله فينا رسولاً يُذكِّرنا، ولو أنزل الله إلينا كتابًا سماويًا مثل التوراة والإنجيل ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ فلما بعث الله لهم محمدًا (ﷺ) وأنزل لهم قرآنًا ﴿ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ فسوف يرون عاقبة كفرهم ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴾ بموازين الله ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ فاصبروا وصابروا يا عباد الله الصالحين.

***

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) ﴾

اتركهم إلى حين يأتى أمر الله، وانظر ماذا يحدث لهم، وسوف يعرفون ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ عندما يقولون فى تحدٍّ واستهزاء: متى هذا الوعد ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ إذا نزل بدارهم ﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴾ فبئس هذا الصباح ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ والتكرار هنا لتأكيد المعنى.

* * *

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢) ﴾

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ ﴾ تنزيهًا لله عن كلّ ما يصفون بألسنتهم ﴿ رَبِّ الْعِزَّةِ ﴾ واهب العزة ومانعها ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ تحية وسلام لجميع المرسلين ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣) وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) ﴾

﴿ صٓ ﴾ ارجع لشرح الحروف المُقَطَّعة فى أول سورة البقرة ﴿ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ قسم بالقرآن الذى يذكر الناس بالله خالقهم وربهم، ولماذا خلقهم وماذا عليهم أن يفعلوا ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ بعد نزول القرآن، أصبح الكافرون فى تكبر وحمية ومخالفة لرسالة محمد، وتكررت آيات القرآن التى تؤكد أن العزة بيد الله وحده، وأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، أما عزة الكافرين فهى حمية الجاهلية. وكم أهلكنا قبلهم من أمم عاصية ﴿ فَنَادَوْا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ فاستغاثوا، ولكن فات وقت الاستغاثة. وتعجب الكافرون أن يرسل الله إليهم رجلاً منهم ينذرهم، فقالوا عنه ﴿ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ إنما محمد ساحر كذاب، هل يعقل أن كل هذه الآلهة من أصنام وأوثان نعبدها يمكن أن تكون إلهًا واحدًا؟! اندفع وجهاء القوم من مجلس أبى

طالب منصرفين، قائلين اصبروا على آلهتكم، إن وراء دعوة محمد لكم أن تقولوا لا إله إلا الله أمرًا مُرادًا(١).

* * *

﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ (٧) أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩) أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ (١٠) جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ (١١) ﴾

لم نسمع أن الله واحد لا شريك له في دين الآباء والأجداد ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ ﴾ كذب وافتراء من محمد ﴿ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ﴾ هل اختاره الله من بيننا جميعًا ونحن الأغنياء الأقوياء لينزل عليه الذكر؟! ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ﴾ ولكن الحقيقة أنهم يشكون في ذكر الله ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ وهم لن يؤمنوا حتى يذوقوا العذاب في الآخرة ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴾ أم هم يتحكمون في رحمة الله؟ كيف تنزل؟ وبأيّ كم وبأيّ كيف؟ ولمن يهبها؟ ـ ألا يعرفون أن الله أعلم حيث يجعل رسالته؟ ألا يعرفون أن ملك الملوك إذا وهب لا تسألن عن السبب؟ ـ أم أنهم ملوك السماوات والأرض وما بينهما ﴿ فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ ﴾ فليتقدموا، وليمكنوا لأنفسهم بقدر ما يستطيعون حتى يمتلكوا السماوات والأرض وما بينهما ويصبحوا آلهة الكون ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ ﴾ جنود تلك الأحزاب التي تريد أن تصبح آلهة الكون مهزومة، قديمًا وحديثًا ومستقبلاً، إن عاجلاً أو آجلاً، ذلك قول الله خالق الكون وربه ومالكه، فاتعظوا يا أولي الألباب.

* * *

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُوْلَئِكَ الأَحْزَابُ (١٣) إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ (١٥) وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦) ﴾

(١) روى النسائي والترمذي أن وجهاء قريش ذهبوا إلى أبي طالب يطلبون منه أن يجعل محمدًا (ﷺ) يتوقف عن التعرض لآلهتهم، فلما كلمه، أجاب الرسول (ﷺ): «أريدهم على كلمة واحدة يقولونها يدين لهم بها العرب» فقالوا: ماهي؟ قال: «لا إله إلا الله»، فقاموا فزعين يقولون: أجعل الآلهة إلهًا واحدًا، إن هذا لشيء عجاب!

ولقد تحزبت على رسلهم وكذبوهم أقوام نوح (عليه السلام)، وعاد قوم هود (عليه السلام) ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ﴾ صاحب الجنود الأقوياء، وقيل صاحب الملك الراسخ، وتحتمل الأوتاد معنى الأهرامات، كما وصف القرآن الجبال بالأوتاد ﴿وَثَمُودُ﴾ قوم صالح (عليه السلام)، وقوم لوط (عليه السلام)، وأصحاب الأيكة وهم قوم شعيب (عليه السلام)، فحق عليها كلها عقاب الاستئصال[1]، وما ينتظر هؤلاء الذين يكذبونك إلا ﴿صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ يحتمل ذلك صيحة أجلهم، أو صيحة البوق للبعث والحساب ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ قيل المقصود لا ينتظر هؤلاء المشركون إلا صيحة واحدة تسلمهم للعذاب الذى لا إفاقة منه ولا انتهاء له، وقال الماتريدى: [قال أبو عبيدة: ما لها من راحة ولا إفاقة (مثل إفاقة المريض من علته)، وقال أبو عوسجة والقتبى: (مالها) من انقطاع] ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ربنا عجل لنا نصيبنا من العذاب قبل يوم الجزاء، قالوا ذلك تحديًا واستهزاءً.

***

﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠)﴾

اصبر يا محمد على ما يقوله المكذبون ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ﴾ ذا القوة فى الدين والعبادة ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ رجاعٌ إلى الله، إنا سخرنا الجبال يُسبحن معه الله ـ تعالى ـ فى آخر النهار وفى أوله ـ والمقصود كل وقت ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ وتتجمع الطير حوله راجعة حين تسمع صوته الجميل وهو يُسبح الله ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ قوينا ملكه ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ وآتيناه الحكمة والقول الفصل بين الأقوال والخصومات.

***

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ

(١) ربما يتساءل البعض: ولكن قوم فرعون لم يبادوا كلهم؟ والإجابة قد تكون أن المكذبين منهم هم الذين خرجوا مع فرعون وراء موسى (عليه السلام)، وأولئك هم الذين غرقوا مع قائدهم لجهنم وبئس المصير. وهناك كثير من المصريين تبعوا موسى (عليه السلام)، منهم على سبيل المثال مؤمن آل فرعون، وامرأة فرعون، والسحرة، وبالطبع هناك من لم يتبع لا موسى (عليه السلام) ولا فرعون، والله أعلم.

﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾

تقص الآيات التالية ما حدث لنبى الله داود (عليه السلام) مع الخصوم الذين تسوروا محراب عبادته، ودخلوا عليه ففزع منهم، فقالوا لا تخف، نحن خصمان، والسياق يحتمل أن يكون المقصود نحن فريقان متخاصمان، ويحتمل أنه تكلم أحدهم عن قضيته مع خصم له فى المجموعة الأخرى، فقال: نحن خصمان ظلم أحدهما الآخر، فاحكم بيننا بالحق ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ ولا تَجُر فى حكمك، واهدنا إلى الحق. هذا أخى له تسع وتسعون نعجة، أما أنا فلى نعجة واحدة، فقال ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ اجعلنى أكفلها، والمقصود اجعلنى أتملكها ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ وشدد وتغلب علىّ فيما يطلب، فأجابه داود (عليه السلام): لقد ظلمك أخوك بطلبه ضم نعجتك إلى نعاجه، وكثير من المتخالطين يظلم بعضهم بعضًا، ويستثنى من إيقاع ذلك الظلم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم قليلون. وظن داود أننا فتناه، فاستغفر ربه، وسرعان ما ركع وخشع، ورجع لربه، فغفر الله له ذلك، وإن له عند الله ﴿لَزُلْفَىٰ﴾ لمقام قريب و﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾.

ما سبق هو المعنى الحرفى للآيات السابقة، وقد تعددت واختلفت تأويلات المفسرين لذلك الغيب، وتسرب لبعضها روايات أهل الكتاب(١).

وقول الآية ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ﴾ تبين أن هناك ذنبًا ما اقترفه داود (عليه السلام)، فما هو؟ الله أعلم، وقد نقل مخلوف من تفسير أبى حيان التوحيدى قوله إن ذنب داود (عليه السلام) كان فى ظنه الخاطئ، وإن ذلك من قبيل أن حسنات الأبرار سيئات المقربين. يحتمل النص تأويلات كثيرة أبعد من رواية الكتاب المقدس، وأقرب لتأويل التوحيدى الذى أخذ به مخلوف، والله أعلم.

* * *

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ

(١) روى الكتاب المقدس، سفر صموئيل الثانى قصة مفادها أن نبى الله داود (عليه السلام) رأى امرأة جميلة تستحم، فأخذه جمالها، فاستدعاها وجامعها، ثم دبر مؤامرة اغتال فيها زوجها أوريا الحثى فى ميدان القتال. ومن تلك المرأة أنجب سليمان (عليه السلام) ـ الإصحاح ١١، ١٢: ١ ـ ١٤.

﴿نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩)﴾

فالخليفة على الأرض يحكم بين الناس بالحق ولا يضل عن سبيل الله باتباعه الهوى، ومن يضل عن سبيل الله يلقى عذابًا شديداً يوم الحساب الذى تغافل عنه. وما خلق الله السماء والأرض لينتهى أمر البشر عليها باطلاً بدون بعث ولا حساب، فويل للذين كفروا من حسابهم يوم البعث الذى لا يرجونه ولا يصدقونه ويخدعون أنفسهم بالأمانى والظنون. أم أنهم يريدون أن نساوى الفجار والمفسدين بالمتقين الذين آمنوا وعملوا الصالحات؟ وهذا القرآن الذى أنزلناه إليك يا محمد ﴿مُبَارَكٌ﴾ يأتى بالخير على من يتدبر آياته ويعمل بها، ويُذَكِّر أولى الألباب بخالقهم، ولماذا خلقهم، وما عليهم أن يعملوه.

***

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣)﴾

رزق الله داود (ﷺ) سليمان (ﷺ) ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ رجاع إلى الله فى كل أموره[1] ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ استعرض بعد زوال الشمس الخيول السريعة التى تقف على ثلاثة قوائم وطرف حافر الرابعة، فقال ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ والخير من أسماء الخيل ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ قال مخلوف والمراغى وغيرهما: إن المقصود أنه أحب الخيل من ذكر الله، وذكر نعمه، ولما يمكنها أن تفعله فى سبيل الله ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ تعددت التأويلات لذلك، فمنها أنه أمر بجريها حتى غربت الشمس، ومنها حتى غابت عن نظره بسبب ما أثارته من غبار، أو بسبب بعدها عنه، ثم أمر برد الخيل إليه، فأخذ يمسح على سيقانها وأعناقها، وهناك تأويل آخر ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ أحببت الخيل حتى شغلتنى عن ذكر ربى حتى ﴿تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ حتى غربت الشمس ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ فجعل يضرب سيقانها وأعناقها بالسيف، والله أعلم.

***

(١) قال كتبة الكتاب المقدس إن سليمان (ﷺ) كفر وعبد الأوثان.

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠) ﴾

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ ابتليناه وامتحناه ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ﴾ جسمًا خائرًا بلا إرادة ولا قوة ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ عاد إلى ربه متضرعًا مستغفرًا، وقال ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ ﴾ وامنحنى ملكًا لا يبلغه أحد من بعدى، فسخر الله له الريح تجرى بالخير حيث يريد، وسخر له من الشياطين كل بناء وكل غواص فى البحر، وغيرهم مقيدين بالأغلال ﴿ هَٰذَا عَطَاؤُنَا ﴾ المتفرد الخاص بك ﴿ فَامْنُنْ ﴾ أعط لمن شئت ﴿ أَوْ أَمْسِكْ ﴾ أو امنع ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ لأن سليمان له عند الله ﴿ لَزُلْفَىٰ ﴾ لمقام قريب ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ ومرجع حسن فى الآخرة.

* * *

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤) ﴾

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ﴾ واذكر يا محمد عبدنا أيوب الذى ابتلاه ربه، فلم يزد عن أن يقول ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ أصابنى الشيطان بعناء وتعب، فاستجاب الله لندائه وأوحى إليه ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ اضرب الأرض بقدمك ينفجر ينبوع من الماء ﴿ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ فاغتسل بمائه، واشرب منه فتشفى ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ليتذكر ذوو العقول أن مع العسر يسرًا وأن الله مع الصابرين، وأن من يتق الله يجعل له مخرجًا من كل محنة ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا ﴾ حزمة من النبات ﴿ فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ هذا من أمور الغيب التى لم يوضحها قرآن ولا حديث صحيح، والعبرة هنا هو أنه صبر على ابتلائه ﴿ نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ فوهبه الله من رحمته ما يشاء.

* * *

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ (٤٧) وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ (٤٨) ﴾

واذكر يا محمد عباد الله: إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أولى القوة والعزم والبصيرة فى عبادة الله، وأصحاب الأبصار، إنا جعلناهم خالصين مخلصين العمل للدار الآخرة، وهم عندنا من عبيدنا الذين اصطفيناهم واخترناهم. واذكر كذلك إسماعيل واليسع وذا الكفل، فكلّ منهم من الأخيار.

***

﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ (٥٤) ﴾

هذا ذكر المرسلين من قبلك، وإنا نعد المتقين بحسن المآب فى يوم الحساب، إلى جنات الإقامة، مفتوحة لهم أبوابها، ينعمون فيها بالراحة، وبالفاكهة الكثيرة والشراب، مع أزواجهم المشغوفات بالنظر إليهم ﴿ أَتْرَابٌ ﴾ متساويات ﴿ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴾.

***

﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤) ﴾

أما الطغاة فينتظرهم أسوأ مرجع لله، يصطلون فى جهنم فبئس الفراش ﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ ﴾ ماء بالغ الحرارة ﴿ وَغَسَّاقٌ ﴾ صديد يسيل من الأجسام ﴿ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ وألوان أخرى من العذاب ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾ داخل معكم النار ﴿ لا مَرْحَبًا بِهِمْ ﴾ لا يرحبون بهم ﴿ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ فردّ الأتباع قائلين لهم ﴿ بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ أنتم الذين زينتم لنا الكفر والضلال حتى صرنا فى أسوأ قرار، ثم أخذوا يتوسلون إلى ربهم كى ينزل بكبرائهم وقادتهم العذاب ﴿ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا ﴾ الضلال الذى أوجدنا

فى النار ﴿ فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى النَّارِ ﴾ مرة لكفرهم ومرة لدعوتهم لنا بالكفر، وقال كبراؤهم وقادتهم باحثين عمن كانوا يعتبرونهم أشرارًا بمقاييس الدنيا الزائفة ﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴾ لماذا لم يدخلوا النار؟ ﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ سخرنا واستهزأنا بهم في حياتنا الدنيا ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴾ أم أن أعيننا ضلت مكانهم ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾.

* * *

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠) ﴾

قل للمكذبين ـ يامحمد ـ ﴿ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ﴾ وليس هناك إله إلا الله، وهو ﴿ الْوَاحِدُ ﴾ الأحد ﴿ الْقَهَّارُ ﴾ لا يقهره أحد؛ لأنه ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ القائم على كل أمورها ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ واهب العزة ومانعها ﴿ الْغَفَّارُ ﴾ لمن تاب وآمن ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ خبر من السماء عظيم ﴿ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ لاغترارکم بالدنيا ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ قيل: إنهم سألوا الرسول (ﷺ) عن تفاصيل قصة خلق آدم، وأقوال الملائكة وإبليس الواردة فى أوائل سورة البقرة والآيات التالية، فأجابه الله: قل لهم يا محمد إنما أعلم فقط ما يوحى إلى بخصوص آدم والملائكة وإبليس، وإننى نذير مبين لكم.

* * *

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) ﴾

واذكر يا محمد قصة خلق آدم؛ حيث قال ربك للملائكة إنه خالق بشرًا من طين، فبعد أن يكمل خلقه وينفخ فيه روحه، اسجدوا له، فسجد جميع الملائكة إلا إبليس، استكبر وكان من الكافرين، والاستثناء هنا منقطع، على أنه ليس من الملائكة، فسأله رب العالمين: ما منعك من السجود لمن خلقت بيدى؟ هل استكبرت؟ أم تصورت أنك من العالين الذين لا يطيعوننى؟ فأجابه إمام المتكبرين وقائدهم إلى جهنم يوم الدين ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾.

* * *

﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) ﴾

فطرده رب العالمين من الجنة قائلاً ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ مطرود من رحمتي ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ فقال إبليس ﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ فأجابه تعالى ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ قال إبليس ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فأقسم إبليس: بعزتك يارب العالمين لأغوينّ البشر أجمعين ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ فلا سلطان لي عليهم. قال تعالى ﴿ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

* * *

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨) ﴾

قل ـ يا محمد ـ لكل الناس ﴿ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ مقابل التبليغ ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ المتقولين القرآن على الله أو المتصنعين ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ عن خالقهم أجمعين، ولماذا خلقهم، وماذا عليهم أن يعملوا ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) ﴾

نزل هذا الكتاب ـ القرآن ـ من عند الله ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ واهب العزة ومانعها ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ واهب الحكمة ومانعها، أنزله بالحق، أنه لا إله إلا الله، فاعبده يا محمد ومن آمن برسالتك مخلصين له الدين، والدين الخالص له وحده ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ وهم المشركون، قالوا عن آلهتهم ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ ما نعبدهم إلا ليقربونا لله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ إن الله يحكم بينهم وبين الموحدين فيما يختلفون فيه[1]، والله لا يهدى من يكذب بالحق ويكفر به ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ تنزه عن ذلك ﴿ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ لا إله إلا هو، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

* * *

(*) إلا الآيات ٥٢، ٥٣، ٥٤ فمدنية.

(١) التوحيد الخالص يهدى إلى المساواة بين الناس، ويدعو للعدل، والشرك يدعو للتمييز بين الناس، ومن ثم الظلم.

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥) خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٦) ﴾

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ بالحق، فكلّ ما فيها يعمل وفق نظام إلهى بديع، يسبح له ويدعو أولى الألباب لتسبيحه وعبادته ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ ﴾ يلفه على النهار لف اللباس على اللابس فيستره فتسود الظلمة ﴿ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ ويلف النهار على الليل ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ لمنافع البشر المتعددة، من حساب الأيام والشهور والسنين، والإضاءة والإمداد بالطاقة اللازمة للحياة، وغير ذلك ﴿ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ علمه عند الله ﴿ أَلا هُوَ الْعَزِيزُ ﴾ واهب العزة ومانعها ﴿ الْغَفَّارُ ﴾ لكل الذنوب مهما عظمت إذا تاب العبد وأناب ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ خلق الناس من نفس النفس، وذهبت أكثر التفاسير لأن المعنى خلق آدم، وخلق منه حواء، ولكن جاء فى سورة النحل ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ [٧٢]، ولا يعنى هذا أن الله خلق الزوجات من الأزواج، ولا العكس، وإنما خلق الزوج والزوجة من نفس واحدة، أى من نفس النفس، والله أعلم. وقد جاء فى سفر التكوين(١) أن الله خلق حواء من ضلع آدم، وليس هناك نص فى ذلك فى القرآن ولا فى الحديث الصحيح الصريح(٢) ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ وهى الإبل، والبقر، والضأن، والمعز لكم فيها منافع كثيرة لعلكم تشكرون ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ﴾ يخلقكم فى أرحام أمهاتكم طوراً من بعد طور فى ثلاث ظلمات، ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة، وهو غشاء يحيط بالجنين لحمايته ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ هذه قدرة ربكم ورحمته بكم ﴿ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ فكيف تُصرفون عن عبادته.

* * *

(١) ثم قال الرب الإله: «ليس مستحسنًا أن يبقى آدم وحيدًا. سأصنع له معينًا مشابها له». وكان الرب الإله قد جبل من التراب كل وحوش البرية وطيور الفضاء وأحضرها إلى آدم ليرى بأىّ أسماء يدعوها، فصار كلّ اسم أطلقه آدم على كلّ مخلوق حى اسمًا له. وهكذا أطلق آدم أسماء على كل الطيور والحيوانات والبهائم. غير أنه لم يجد لنفسه معينًا مشابهًا له فأوقع الرب الإله آدم فى نوم عميق، ثم تناول ضلعًا من أضلاعه وسد مكانها باللحم، وعمل من هذه الضلع امرأة أحضرها إلى آدم. فقال آدم: «هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى، فهى تدعى امرأة لأنها من امرىء أخذت» ـ سفر التكوين ٢: ١٨-٢٣.

(٢) ربما يستشهد البعض بما جاء فى البخارى من أن المرأة خُلقت من ضلع أعوج، ولكن ذلك شبيه بما جاء فى التنزيل ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ فهو على سبيل التشبيه، والله أعلم.

﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) ﴾

إن تكفروا بالله فلن تضروه شيئًا، وهو لا يرضى لكم الكفر، ولكن يريدكم أن تؤمنوا باختياركم، وهذا ما يرضاه لكم ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ لا تحمل نفس ذنوب نفس أخرى، فكل إنسان مسؤول عن أفعاله فقط، ثم ترجعون إلى الله فيخبركم بجزاء أعمالكم، وما دار فى صدوركم، ويجازيكم على أفعالكم، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ويزيد، والسيئة بمثلها، ويعفو عن كثير، ويغفر الذنوب جميعًا إلا أن يشرك به.

* * *

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨) أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ (٩) ﴾

أى إذا أصاب الإنسان ضر فى نفسه أو ماله أو أهله، جأر إلى ربه بالدعاء راجعًا إليه بالتوبة ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً ﴾ ثم إذا أعطاه ربه نعمة ﴿ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ قل يا محمد لمن يفعل ذلك ﴿ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ أذلك خير ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ قائم وساجد فى صلاة الليل، خاضع خاشع مطيع، يخشى يوم الحساب ويرجو رحمة ربه فى الدنيا والآخرة ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ ﴾ أن الله ربهم، خلقهم ليعبدوه بحمل أمانة الخلافة على الأرض، ويقيموا الحق ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ لأنهم يتبعون أهواءهم ويسعون وراء متع الدنيا، وعطلوا فى سبيل ذلك فطرهم ومداركهم ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾.

* * *

﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) ﴾

قل يا محمد للناس ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ واعلموا أن ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ والإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فاعلم أنه يراك، أى راع الله فى كل قول وعمل ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ فاذهبوا إلى حيث يمكنكم الإحسان ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وللصبر أوجه كثيرة، منها الصبر على كبح أهواء النفس، وعلى التزام الطاعات، ثم الصبر على الابتلاءات وعزائم الأمور ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ أبرأ من عبادة الشركاء، وأُخلص فى عبادة الواحد الأحد ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فأنال شرف السبق فى الإسلام، وأن أكون الأسوة الحسنة للمسلمين ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

***

﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦)﴾

قل يا محمد إنى أعبد الله وحده لا شريك له وأخلص فى عبادته ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ فاعبدوا أصنامكم وآلهتكم كيفما شئتم، ولكن اعلموا أن الخسارة الحقة أن يخسر الناس يوم الحساب أنفسهم ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ بمعنى أن أهلهم يتبعونهم فى جهنم إذا كانوا قد تبعوهم فى الدنيا، أو أن هؤلاء الخاسرين لن يجدوا لهم أهلاً فى الآخرة كالذين أنعم الله بهم عليهم فى الدنيا، ذلك هو الخسران الواضح ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ لا مهرب لهم ولا نجاة من طبقات النار التى تحيط بهم ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾.

***

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ (١٩) لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠)﴾

والذين رفضوا ﴿الطَّاغُوتَ﴾ وهو كل ما يعُبد من دون الله، ورجعوا إلى الله، والذين يستمعون إلى ما أوحى الله لك ويتبعون ﴿أَحْسَنَهُ﴾ سبق بيان بعض الأقوال فى

ذلك فى الآية ١٤٥ من سورة الأعراف، وإذا كان الرسول (ﷺ) نصح المؤمنين فى دعائهم أن يطلبوا من الله الفردوس الأعلى، أفلا يجدر بمن يطلب الفردوس الأعلى أن يتبع القول الأحسن، مثل قوله تعالى ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢] فالعفو والصفح درجات، فاتبعوا أحسنها مثلما فعل الصديق (رضي الله عنه) حين عفا وصفح عمن قذف ابنته عائشة الصديقة (رضي الله عنها) إفكًا وزورًا، واستمر فى الإنفاق عليه، ومثل قوله تعالى ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]، فأحسن القرض هو أن يقع فى يد أكثر المحتاجين، ويفيدهم أكبر إفادة، ويمده صاحبه لأطول أجل، والأحسن أن يسترده يوم الدين، ومثل قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨] فتتدرج مراتب الجهاد، ففى جهاد النفس درجات، أولها أداء الفروض والامتناع عن المحرمات، وأعلاها بذل النفس فى سبيل الله مصداقًا لقوله ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] فيكون كلّ قول وكلّ عمل هو فى سبيل الله، وجاء فى الحديث «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه» رواه الطبرانى، والإتقان درجات، أحسنها أعلاها. وأولئك الذين يتبعون أحسن القول، هم المتقون الذين هداهم الله، وأولئك هم أصحاب العقول، جزاؤهم فى الآخرة غرف فى الجنة فوقها غرف، تجرى من تحتها الأنهار، أما الذين كفروا تكبرًا وجحودًا، فقد حقت عليهم كلمة العذاب، ولن ينقذهم أحد من النار.

***

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١) أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٢)﴾

ألم تروا أيها الناس قدرة الله، ينزل الأمطار من السماء، فتخزنها الأرض فى ينابيع، وتنبت به زرعًا مختلف الأنواع والأشكال والأحجام والطعوم والألوان ﴿يَهِيجُ﴾ يبلغ أشده ثم يجف، ثم يتغير لونه إلى الصفار ويموت، فليتعظ أولو الألباب بأن حياتهم مثل حياة هذا الزرع، تشتد قوتهم ومكانتهم، ثم يبدأون فى الوهن والضعف، وينتهون بالموت، فليعملوا للآخرة؛ حيث لا هرم ولا ضعف ولا موت. وهل يستوى من شرح

الله صدره للإسلام، فأضاف نوراً على نور قلبه الفطرى مع من يرفض قلبه ذكر الله؟ أو الذى يرفض الهدى ويقول إن قلبى أغلف، وإن أذنى ثقيلة لا تسمع، أو الذى يقول لرسوله مهما تأتنى بآية فلن أؤمن بك! ذلك من هو فى ضلال مبين.

* * *

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) ﴾

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ القرآن ﴿ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا ﴾ لا يختلف ولا يتناقض، سواء فى الأسلوب أو المعنى، نظمه كله بديع، بناؤه الفكرى متماسك متناسق، أحكامه واضحة ميسرة، إخباره بالغيب صادق ﴿ مَّثَانِيَ ﴾ تتكرر فيه الأحكام والقصص والمواعظ للتأكيد ومزيد التوضيح ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ تضطرب جلود المؤمنين عند سماعه، ثم تلين وتلين قلوبهم وتطمئن لذكر الله، أولئك الذين هداهم الله ﴿ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ وأولئك هم المتكبرون من أمثال الذين ذكرتهم آية الأعراف ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ فلا يجد إلا وجهه يحتمى به منها، خير أمَّن يأتى آمنا يوم القيامة؟ ويومها يُقال للظالمين ذوقوا جزاء أعمالكم السيئة التى اكتسبتموها فى الدنيا، ولقد كذبت الأمم السابقة فأتاهم العذاب من حيث لا يتوقعون ﴿ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾.

* * *

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١) ﴾

ضرب الله الأمثال ونوعها لعل الناس يتذكرون القضية الكبرى: لماذا هم على الأرض؟ من خلقهم؟ ماذا يريد منهم ليفوزوا بدنياهم وأخراهم؟ وجاءت تلك الأمثال فى قرآن عربى ليس فيه اعوجاج ولا تناقض ولا ألغاز. وضرب الله مثلاً رجلاً له صاحب واحد، ورجلاً آخر له عدة أصحاب يختلفون فيما يأمرونه وينهونه، هل يستوى حال وعمل كلٍّ منهما؟ رجل يعبد الله وحده، وآخر يعبد عدة آلهة تتشاكس وتتنازع فيه، الحمد لله الذى لا شريك له، والذى أنعم على عبيده بأن يسلموا له خالصين مخلصين، قال الشاعر:

اعمل لوجهٍ واحدٍ . . . يكفيكَ كُلّ الأوجُهِ

وقال آخر:

اجعل بربك عزَكَ يستقرُ ويثبتُ . . . فإن اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ فكلٌّ من عليها فانٍ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾.

***